

رشيد بنزين، "مفكرو الإسلام الجدد"، دار ألبان ميشيل، باريس، سنة 2004، 288 صفحة، منشور باللغة الفرنسية¹.

الكتاب للباحث المغربي الشاب "رشيد بنزين"، مقيم بفرنسا، مهتم بالدراسات النقدية للتراث الديني، يتناول من خلاله بالدراسة والتحليل نظريات عدد من المفكرين قدموا قراءات جديدة للنص القرآني والتراث الديني بشكل عام وهم : عبد الكريم سروش - إيران-، محمد أركون -الجزائر-، عبد المجيد شرفي-تونس-، أمين الخولي، محمد خلف الله ونصر حامد أبوزيد -مصر-، فضل الرحمان-باكستان- وفريد إسحاق-هندي من جنوب إفريقيا-.

الفكرة الرئيسية للكتاب كما يتبين من مدخله إثبات أنه في مقابل صورة الإسلام المستعمل لخدمة سلطة فقهية ما أو إيديولوجية ما أو نظام سياسي ما والتي تحتل المكانة الأوسع في الحقل الإعلامي والأكاديمي أحيانا في كل من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، هناك قراءات معرفية مختلفة للتراث الإسلامي تواكب التطورات الحديثة في العلوم الإنسانية وثوراتها المختلفة، متجاوزة بذلك احتكار الفقهاء للمعرفة الدينية .

رغم اختلاف اللغات والفضاءات الجغرافية وحقول البحث والمقاربات المنهجية المتبعة، يلتقي "مفكرو الإسلام الجدد" في كونهم لم يعتمدوا في دراستهم للمعرفة الدينية على المناهج المستخدمة والمعاد إنتاجها داخل المؤسسات الدينية التقليدية، بل انفتحوا على الدراسات الأكاديمية والمناهج الحديثة في مجال العلوم الإنسانية، ولم يتناولوا التراث الديني تناولا جزئيا وفق جانب معرفي أو عملي ما أو مذهب فقهي أو كلامي ما، بل درسوه في كليته من حيث مصادره ومعارفه الأساسية من فقه وكلام وفلسفة وتصوف.

إنهم يفكرون في الدين في ظروف تختلف عن ظروف المدرسة الإصلاحية ممثلة في آراء جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، فلم تأسره ضغوط الصدام مع الاستعمار التي وجهت المنظومة الفكرية الإصلاحية، بل يفكرون ضمن فضاء إشكالي لأوطان مستقلة.

¹ Benzine, Rachid, *Les nouveaux penseurs de l'Islam*, Paris, Edition Abin Michel, 2004.

”مفكرو الإسلام الجدد“ نقاد للتراث الديني، لكن ممارستهم النقدية كما يقول محمد أركون، لا تستهدف نفي التراث أو هدمه أو تجاهله أو الخفض من قيمته، فالنقد المبني على دراسات علمية وفق مقاربات مختلفة للنصوص التراثية بما في ذلك النصوص التأسيسية بمثابة الإضافة والإضاءة لتلك النصوص بقراءتها بشكل جديد وعلى أسس علمية حديثة، لأن هناك فرقا شاسعا بين الموقف المعرفي الحفري المستكشف للتراث والموقف الأيديولوجي المبجل للتراث، كما أن نقد هؤلاء المفكرين، وعلى الرغم من صرامته وجرأته المعرفية، يتأسس من داخل الفضاء الديني الإسلامي، أي أنهم ينطلقون من كونهم ”مسلمين“ كما يشير إلى ذلك رشيد بنزين.

تعد إشكالية العلاقة بين الإسلام والحدثة الموضوع المركزي للكتاب، إذ يرى الكاتب أنها المحور الرئيس للقراءات الجديدة للدين من خلال فئة المفكرين التي اختارها، فقد تناول ”مفكرو الإسلام الجدد“ مسألة الحدثة مثلهم في ذلك مثل الإصلاحيين السابقين لكن أشكلتهم لها كانت مختلفة تماما. لقد كان منطلق الإصلاحيين محاولة التوفيق بين نصوص الدين وإنجازات الحدثة، محاولة مبنية على المعادلة التالية : قبول العلوم والتكنولوجية شرط أن لا تمس العقيدة الدينية وقواعد الحياة الاجتماعية القائمة على منطق المعرفة الفقهية، على الرغم من وجود عقلانية مستنيرة لدى محمد عبده أشاد بها رشيد بنزين. أما ”مفكرو الإسلام الجدد“ فينطلقون من كون الحدثة فترة من تاريخ الإنسانية أصبح فيها للعقل مكانة مركزية، والعقل عندهم ليس كونيا بل يبني وفق أطر اجتماعية وشروط تاريخية ومن خلال تطبيقات وخطابات متعددة، و للحدثة منجزات ذات أهمية في المجال الإنساني مثل فكرة الفرد الذي يفكر بحرية، يكتشف الطبيعة ويطمح لأن يبني بنفسه عالما أفضل، لكن هؤلاء المفكرين من نقاد الحدثة أيضا وبنفس الجدية والصرامة المنهجية التي ينتقدون بها التراث مثلهم في ذلك مثل عدد من المفكرين المعاصرين كهابرماس، بورديو وآلان تورين على الرغم من اختلاف الفضاء الإشكالي. إنهم لا يستهدفون الدفاع عن نموذج تطبيقي معين للحدثة، و لكنهم في الآن نفسه يتبنون من الحدثة ذلك التنوير و تلك الروح النقدية التي أنتجتها و طورتها المعارف الحديثة كاللسانيات و علوم اللغة و السيميولوجيا و التاريخ المقارن للأديان و علم الاجتماع و التي بإمكانها أن

تساعد في دراسة التراث الديني وفق طرق بحث أكاديمية معتمدة على مناهج موضوعية أو تكاد تكون موضوعية.

إن معظم "مفكري الإسلام الجدد" هم من خريجي المؤسسات الجامعية الحديثة و يجمعون بين حقول بحث مختلفة كالفلسفة و علم الاجتماع و التاريخ و علوم اللغة العربية و القانون كما أنهم على دراية واسعة بالعلوم الدينية التقليدية الأمر الذي جعل نظرتهم للحدثة في علاقتها بالدين أكثر شمولية مقارنة بالدراسة الإصلاحية. فتحديث المجتمعات المسلمة لا يتم في نظرهم بالاعتماد على العلوم و التكنولوجيا دون اعتبار للعقل الذي أنتجها لذا يرون من الأهمية بمكان إعادة النظر في نظام التفكير الديني ككل من خلال نقد نظم إنتاج المعرفة الدينية التقليدية. إن تاريخ الإسلام في نظر عبد الكريم سروش أو محمد أركون أو نصر حامد أبوزيد أو فضل الرحمان أو عبد المجيد شرفي ليس تاريخاً مقدساً بل هو جزء من تاريخ الإنسانية تحكمه عوامل اجتماعية واقتصادية و سياسية وجغرافية، إذ لا يجب في نظرهم القبول بفكرة التمييز بين الإسلام و المسلمين ليبدو الإسلام و كأنه هوية ثابتة مطلقة منزهة و بعيدة كل البعد عن حركة التاريخ. فالأفكار لا تعيش في السماء بل يحملها الناس على الأرض و يتحركون بها، يؤولونها و يوظفونها وفق أغراضهم و حسب ظروف الزمان و المكان و هنا يحيل رشيد بنزين إلى مقولة علي بن أبي طالب: "القرآن بين دفتي المصحف لا يتكلم من ذاته ولكن البشر هم الذين يكلمونه".

إن "مفكري الإسلام الجدد" يتناولون الإسلام في حركته عبر التاريخ و ينفون عنه القداسة التي أنتجتها نظم الذاكرة الجماعية بما يسمح لهم بوضعه على محك الدراسة العلمية سواء تعلق الأمر بالنص- الوحي أو بالنصوص التي تراكمت في جواره و اكتسبت مع مرور الزمن أهميته المرجعية حتى أصبحت نصاً كالنص المؤسس و أضيفت عليها قداسة أضيفت إلى قداسته.

فعندما يتناول رشيد بنزين مقاربة المفكر الإيراني عبد الكريم سروش للحدثة من خلال كتابه "نظرية القبض والبسط" يحيل على السؤال المركزي الذي حرك اهتمامه في البحث و هو : هل يمكن الدفاع عن التعاليم الإسلامية و النظرة الدينية للعالم بواسطة الأدوات العلمية العقلانية للعالم الحديث ؟ يرى سروش أنه في غياب المقاربة الفلسفية للمعرفة الدينية انصب اهتمام المفكرين المسلمين على الأسئلة السياسية التي تثيرها الحدثة كالعلمانية و الديمقراطية و الحريات

العامة و حقوق الإنسان و حقوق المرأة و الفردانية في حين أن هناك أسسا فلسفية للحدثة أكثر عمقا تحتاج إلى تنظير من أجل إعادة تأسيس العلاقة بين الإسلام و الحدثة، أهمها:

- الفكر النقدي في مقابل الفكر التأويلي، أي أن أهم أسس الحدثة الفكر النقدي الذي يقتضي مقارنة تاريخية للنصوص الدينية و الاستغناء عن المقاربة التأويلية - بالمعنى الفقهي- بحكم محدوديتها .

- المعرفة النسبية في مقابل المعرفة المطلقة، فلم يعد العالم اليوم يعتقد بوجود اليقين في مختلف المعارف، بما في ذلك المعرفة الدينية فالمعرفة النسبية أكثر تناسبا مع مفهوم التعدد كأحد قيم الديمقراطية مقارنة بالمعرفة المطلقة.

- الحقوق في مقابل الواجبات، أي أن المعرفة الدينية التقليدية تهتم أكثر بالواجبات و الأوامر في حين أن النظرة الحديثة للعالم تهتم أساسا بالحقوق، أن تكون معتنقا لدين أو حاملا لأخلاق لم يعد واجبا بل أصبح حقا، الأمر الذي يقتضي بناء خطاب ديني حول "إله الحقوق" لا "إله الواجبات".

- دين الحب، و هنا يحيل سروش إلى أهمية التجربة الصوفية التي تقوم على حب الله حيث يصبح الله الإله المعشوق و ليس الإله المشرع و تنتقل علاقة الله بالعالم في الكلام الجديد من علاقة الأمر إلى علاقة الحب و هو ما يمكن المؤمنين من بناء علاقات إنسانية سلمية متسامحة مع الآخرين .

رشيد بنزين يدعو إلى الإنصات إلى الأصوات الجديدة في نقد التراث و قراءته، هذه الأصوات التي استطاعت أن تقارب الإسلام في روحانيته و في جانبه الثقافي و المعرفي، مشيرا وبنوع من الأسف إلى ردود الفعل العنيفة التي تعرض لها معظم هؤلاء المفكرين في مجتمعاتهم من قبل المؤسسات الفقهية أو التيارات الدينية أوالنظم السياسية و هي ردود فعل نابعة في نظره من عدم انتشار قيم الحدثة في هذه المجتمعات، الأمر الذي جعلها غيرمحصرة لتقبل مثل تلك الرؤى النقدية المستنيرة، مستدلا في ذلك بما حدث لنصر حامد أبوزيد بتكفيره ومحاولة فصله عن زوجته بقرار محكمة بعدما تم رفض ترقيته في جامعة القاهرة مما اضطره إلى العيش في المنفى بهولندا، و ما حدث لعبد الكريم سروش الذي اضطر إلى مغادرة بلده إيران و طلب اللجوء في الولايات المتحدة الأمريكية وكذلك الأمر بالنسبة لفريد إسحاق الذي اضطر إلى مغادرة جنوب إفريقيا بحكم مناهضته للأفكار العنصرية.

لقد اعتمد الكاتب في سياق تناوله لنظريات و رؤى "مفكري الإسلام الجدد" على مسار حياتهم الشخصية مع التركيز على الأسس و المنطلقات الإبستمولوجية و المقاربات المنهجية و المفاهيم الأساسية التي يعتمدها كل مفكر في نقده للخطاب الديني، لينتهي في الأخير استنادا إلى رأي المفكر المغربي عبد الفلالي الأنصاري بأن هؤلاء المفكرين يمثلون نموذجا "لوعي إسلامي جديد" يميز في بحثه بين الرسالة القرآنية ونظم المعرفة الفقهية التي تشكلت في زمن مضى ثم تقدمت في المخيال الجمعي، وبالتالي يؤسس لشرعية مقارنة النص القرآني بشكل جديد باعتباره نصا مفتوحا لكل أشكال القراءة، وأن قراءته ليست حكرًا على المؤمنين وحدهم بل تخص غير المؤمنين أيضا.

الجيلالي المستاري

حليمة فرحات، التصوف والزوايا في المنطقة المغاربية، عن دار توبقال، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى 2003، منشور باللغة الفرنسية، 180 صفحة من الحجم المتوسط.²

تدور الفكرة الرئيسية للكتاب حول الولاية والأولياء الصالحين في المنطقة المغاربية وإنشاء الزوايا، إلى جانب الدور العقائدي والاجتماعي والسياسي والثقافي الذي لعبته الزوايا في القرون 12 و13 و14 الميلادية، كما تهتم بالمدونات التي أرخت للمتصوفة والأولياء الذين عرفتهم المنطقة في تلك الفترة و"أخبار الأولياء" التي جعلت الناس تبجل من يحمل علامة "الولي الصالح"، ولقد استطاعت الوصول إلى التحولات الكبيرة وتطور الولاية في المنطقة، فالتصوف بدأ فرديا في شكل شبكات ثم انتقل إلى الزوايا في شكلها التنظيمي القوي الذي عمل على نقل الولاية داخل العائلة نفسها وصولا إلى المطالبة بدور سياسي. تتناول المؤلفة هذه الفكرة من خلال مدخل وخمسة فصول وخاتمة.

في الفصل الأول تشير إلى إمكانية تعريف الولاية من خلال إشارتها إلى مدونات بيوغرافيا الأولياء: "السر المصون فيما يكرم به المحسنون" للطاهر بن محمد بن الطاهر السدافي الأندلسي، "المستفاد في ذكر العباد بمن كان في فاس من العباد" للتميمي، ويحتويان على متصوفة القرنين 11 و12 الميلاديين، كما تذكر

² Ferhat, Halima, *Le soufisme et les zaouyas au Maghreb*, Casablanca, Maroc, les éditions Toubkal, 2003.

مؤلفات أخرى مثل: "رسالة روح القدس" لمحي الدين بن عربي، "التشوف إلى رجال التصوف"، لابن الزيات، "دعوات اليقين" للعزفي، "المقصد الشريف في أولياء الريف" للبادسي، "سبك المقال في فك العقال" لابن نواح، "عنوان الدراية" للغبريني، "تحفة المغترب ببلاد المغرب" للقستيلي ومدونات أخرى تشير إلى الأولياء العرب والبربر و الأندلسيين الذين عرفتهم المنطقة ودورهم في نشر الدين واللغة العربية.

في الفصل الثاني تشير إلى مسالك الصوفية، شخصياتهم، مفارقاتهم في مسار حياتهم، الكرامات وتأثيرها في الأوساط الشعبية، الحياة الزوجية، دخول النساء إلى مجال الولاية مثل (لالا ميمونة توفيت 1198م) ثم دخول الأولياء المجال السياسي، والحكم الصوفي في الأندلس.

في الفصل الثالث تشير إلى انتشار الولاية وتأسيس شبكات و أماكن الزيارة التي تأسست في القرن 13 م من فاس إلى سجلماسة ومراكش، وظاهرة السفر إلى المشرق وتشير هنا إلى أن التصوف المغربي ظل شعبيا.

في الفصل الرابع تشير إلى ظهور الزوايا والتصوف الجهوي وبداية ظاهرة الطرق الصوفية المختلفة انطلاقا من القرن 12م وتنظيم ما يعرف بالرباط الذي يزار أو يحج إليه، وهنا تشير إلى المغرب الأوسط خاصة مدينة بجاية و مدينة تلمسان مَهْدِي "أبي مدين شعيب".

في الفصل الخامس تشير إلى التصوف البدوي وماتسميه التصوف العالم (يكسر اللام) حيث تبين من خلال المدونات التي ذكرت من قبل أن معظم الأولياء من الريف ومن الأندلس، وهنا تشير إلى رفض الأولياء الاتصال بالسلطة السياسية، وتذكر "ابن عاشر". وهنا أيضا نتحدث عن الدراسات الإيثنوغرافية للمغرب والتي تعتبر الزوايا كتعبير عن "إسلام مغربي ريفي"، كما تشير إلى بعض الأولياء الذين كانوا حكاما وتذكر "ابن الغالب (1177-1183)" الولي الحاكم في القصر الكبير.

لقد تابعت المؤلفة مختلف مراحل تطور الولاية في المجتمع المغربي انطلاقا من المدونات والمصادر التي تحصلت عليها، واستطاعت أن تبين وظيفتها القدسية التي مازالت تؤثر إلى يومنا هذا.

عبد الوهاب بلغراس